د. خيرالدين دعيش

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي
جامعة سطيف 2

مقياس نظرية الأدب للسنة الثانية ليسانس

المحاضرة : نظرية الانعكاس .

ج-نظرية الانعكاس:

خلافا لنظرية المحاكاة والتعبير، ولآراء إبوليت تين Ten، استندت نظرية الانعكاس في تفسير الأدب، نشأة وماهية ووظيفة، إلى الفلسفة الواقعية المادية، هذه الفلسفة التي ترى بأن الوجود الاجتماعي اسبق في الظهور من وجود الوعي، بل إن أشكال الوجود الاجتماعي هي التي تحدد أشكال الوعي، ولعلها أكثر النظريات قدرة على الاستمرار بفضل منهجها الذي يتسم بالحركة، وأنها تستقطب في كل يوم أنصارا ومؤمنين جددا، بخلاف نظرية المحاكاة والتعبير والخلق التي يضعف جمهورها مع كل يوم، ذلك أن نظرية المحاكاة قصرت مفاهيمها على ..... ونظرية التعبير على المبدع، ونظرية الخلق على النص والنتاج الأدبي في حين حاولت نظرية الانعكاس التركيز على كل هذه الأقطاب ..... عملية في الأدب.

ولكون أن نظرية الانعكاس قد استندت إلى الفلسفة الواقعية المادية فإن هذا قد جعلها مختلفة تماما من حيث منهجها، إذ أنها لم تعتمد على الوصف والتأمل، بل على وضع الفروض والاستقراء ودراسة تاريخ الفنون العالمية، كما حاولت أن تفسر الظاهرة الأدبية ‘لى أنها جزء من الظاهرة الثقافية عموما.

وقوى الفلسفة الواقعية المادية التي هي منطلق نظرية الانعكاس أن

الواقع المادي أي علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج (البنية التحتية) تولد وعيا محددا، هذا الوعي يضم الفلسفة والثقافة والقوانين والفكر والفن (البنية الفوقية) وترى أن أي تغير في البناء التحتي سيتبع تغيرا في البناء الفوقي، أي أن التغير في البناء الاقتصادي والاجتماعي يؤدي إلى تغير في شكل الوعي، غير ان العلاقة جدلية (ديالكتيكية) بمعنى ان البناء الفوقي قد يعود فيؤثر في البناء التحتي من خلال تثبيته أو تدويره أو تعديله أو تغييره، ويمكن ان نمثل ذلك بانتقال المجتمع من العصر الاقطاعي على العصر البرجوازي حيث تغيرت معه القيم والمعايير والمفاهيم.

فكل تغير إذن سيتبع تغيرا في الرؤية لمفهوم المجتمع والانسان واللغة، والأدب والقيم... وهو ما يؤدي بالضرورة على تغير في الأشكال الأدبية من حيث الموضوعات والأساليب والأهداف، وهذا يعني أن الأدب انعكاس للواقع الاجتماعي لكنه لا يعني كذلك أن الأدب مجرّد تابع للظروف الخارجية فحسب، بل من شأنه هو أن يؤثر في تلك الظروف ويغيرها بشكل من الأشكال وهي صورة ذلك الجدل القائم بين البنيتين (التحتية والفوقية).

والمجتمع بحكم لا تجانسه بفعل الأيديولوجيا (وهي قيم اجتماعية وسياسية وثقافية متضاربة) فهو ذو ثقافتين، ثقافة سائدة على ثقافة الطبقة السائدة المسيطرة على المجتمع، ثقافة أخرى تبنيها الطبقات المقهورة والمسيطر عليها، وعلى هذا الأساس فإن للفن والأدب بعد طبقي اجتماعي، أي هناك أعمال أدبية ممتثلة للواقع الاج=تماعي وتدعو إلى التصالح معه، وأخرى تطمح إلى هدم العلاقات القائمة لبناء مجتمع افضل، فهناك رؤية تصالحية ورؤية تجاوزية، وهنا يصبح الانعكاس أنواعا، انعكاس طبيعي مزيف وانعكاس واقعي صادق، على حد تعبير جورج لوكاتش (أي انعكاس مزيف أو جدته الطبيعة المسيطرة، وانعكاس واقعي صادق لنم تنتجه الطبقة المسيطرة عليها بل هو من صميم الواقع)، وهذا يعني بأن كل الأعمال الأدبية لها صلة بالواقع لكنها ليست كلها واقعية، كما أن مفهوم الالتزام والواقعية لا يعني اجتهاد المؤلف أو المبدع في تسجيل الوقائع والأحداث الاجتماعية تسجيلا حرفيا يلغي به ذاتيته ويبعد الابداع والتأليف عن إطار النظرية وفلسفة الفن، بل إن الواقعية تنبع من صميم فلسفة الفن، بل إن الالتزام وتصوير الواقع هو أمر يرتقي

بالعمل الأدبي من الناحية الفنية، لأنه يصور العلاقات الاجتماعية من الداخل ويتجاوز ما هو سطحي وهامشي.

وبما أن نشأة الأدب هي انعكاس للواقع الاجتماعي فإن طبيعة الأدب لا بد أن ترتبط بذلك الواقع الذي أنتج فيه، فالكلاسيكية نتيجة عن العصر الاقطاعي والرومانسية على العصر البرجوازي والتقدم العلمي والتقني أنتج الطبيعة، وبدخول الطبقة العاملة على مسرح التاريخ ظهرت الواقعية الاشتراكية.

ولعل كل ما تقدم يثير أسئلة متعددة مثل: أيس الأدب استخداما خاصا للغة؟ وما هو دور الفرد المبدع الذي يتميز عن غيره من الناس؟ ثم يجب أن تتماثل الأعمال الأدبية لأدبيين وجدا في مرحلة اجتماعية واحدة؟ وهل يعني تقدم المجتمع تقدما في الأشكال الأدبية؟ وهل الأعمال الحديثة أكثر فنية من الأعمال التي جاءت انعكاسا لمراحل اجتماعية قديمة؟ مثل هذه التساؤلات لم يغفلها أصحاب نظرية الانعكاس.

إن التغيرات الاجتماعية تفرض تبدلا في الرؤية والمواقف والمفاهيم، وكذلك في الأشكال واللغة، والأديب عضو في جماعة ومجموعة من العلاقات الاجتماعية، لذلك فإن الأديب لا يبدأ من الصفر، فهناك ما هو أسبق منه مثل العادات والتقاليد والموروث .